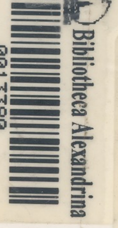
محمود درويش

عاشق من فلسطين

الطبعة الرابعة عشرة



دار العودة - بيروت

عاشق من فلسطين

صمّم الغلاف : الفنان نبيل قدوح

محمود درويش

عاشق من فلسطين

١٩٦٦

دار العودة - بيروت

١٩٩٣/١٠/١
الطبعة الرابعة عشرة

يطلب من دار العودة - بيروت
كورنيش المزرعة - بناية ريڤييرا سنتر
تلفون: ٣١٨١٦٥ - ٨١٥٣٣٥
ص. ب: ١٤٦٢٨٤ / برقياً: العودة

عاشق من فلسطين

عيونكِ شوكةٌ في القلبِ
توجعني... وأعبدُها
وأحميها من الريحِ
وأُغمدها وراء الليل والأوجاع... أُغمدها
فيشعل جُرحُها ضوءَ المصابيحِ
ويجعل حاضري غدُها
أعزَّ عليَّ من روحي
وأنسى، بعد حينٍ، في لقاء العين بالعينِ
بأنّا مرة كنّا، وراءَ الباب، إثنينِ !

كلامُكِ... كان أغنيهْ
وكنت أُحاول الإنشاد
ولكنَّ الشقاء أحاط بالشفة الربيعيَّه

كلامك، كالسنونو، طار من بيتي
فهاجر باب منزلنا، وعتبتنا الخريفيَّه
وراءك، حيث شاء الشوقُ...
وانكسرت مرايانا
فصار الحزن ألفينِ
ولملمنا شظايا الصوت...
لم نتقن سوى مرثيَّة الوطنِ !
سنزرعها معاً في صدر جيتارِ
وفق سطوح نكبتنا، سنعزفها
لأقمارٍ مشوَّهةٍ... وأحجارِ
ولكنّي نسيتُ.. نسيتُ يا مجهولةَ الصوتِ:
رحيلك أصدأ الجيتار... أم صمتي ؟!

رأيتُكِ أمسِ في الميناءْ
مسافرة بلا أهل... بلا زادِ
ركضتُ إليكِ كالأيتام،
أسأل حكمة الأجداد:
لماذا تُسحبُ البيَّارة الخضراءْ
إلى سجن، إلى منفى، إلى ميناءْ

وتبقى، رغم رحلتها
ورغم روائح الأملاح والأشواقِ،
تبقى دائماً خضراء ؟
وأكتب في مفكرتي :
أُحبُّ البرتقال. وأكرهُ الميناء
وأُردف في مفكرتي :
على الميناء
وقفتُ. وكانت الدنيا عيونَ شتاءْ
وقشر البرتقال لنا. وخلفي كانت الصحراء !

رأيتُكِ في جبال الشوك
راعيةً بلا أغنام
مطارَدةً، وفي الأطلال..
وكنت حديقتي، وأنا غريب الدّار
أدقُّ الباب يا قلبي
على قلبي..
يقوم البابَ والشبّاك والإسمنت والأحجار !

رأيتكِ في خوابي الماء والقمحِ
محطّمةً. رأيتك في مقاهي الليل خادمةً

رأيتك في شعاع الدمع والجرحِ .

وأنتِ الرئة الأخرى بصدري . .

أنتِ أنتِ الصوتُ في شفتي . .

وأنتِ الماء، أنتِ النار !

رأيتكِ عند باب الكهف . . عند النار
مُعَلَّقَةً على حبل الغسيل ثيابَ أيتامك

رأيتك في المواقد . . في الشوارع . .

في الزرائب . . . في دمِ الشمسِ

رأيتك في أغاني اليُتم والبؤسِ !

رأيتك ملء ملح البحر والرملِ

وكنتِ جميلة كالأرض . . . كالأطفال . . . كالفلِّ

وأُقسم :

من رموش العين سوف أُخيط منديلا

وأنقش فوقه شعراً لعينيكِ

وإسماً حين أسقيه فؤاداً ذاب ترتيلا . .

يمدُّ عرائش الأيكِ . .

سأكتب جملة أغلى من الشُهَدَاء والقُبَلِ :

«فلسطينيةً كانت. ولم تزلِ !»

فتحتُ الباب والشباك في ليل الأعاصيرِ
على قمرٍ تصلَّب في ليالينا
وقلتُ لليلتي : دوري !
وراء الليل والسورِ . .
فلي وعد مع الكلمات والنورِ.
وأنتِ حديقتي العذراءُ . .
ما دامت أغانينا
سيوفاً حين نشرعها
وأنتِ وفيَّة كالقمح . .
ما دامت أغانينا
سماداً حين نزرعها
وأنت كنخلة في البال،
ما انكسرتْ لعاصفةٍ وحطّابِ
وما جزَّت ضفائرَها
وحوشُ البيد والغابِ . . .
ولكني أنا المنفيُّ خلف السور والبابِ
خُذيني تحت عينيكِ
خذيني ، أينما كنتِ
خذيني ، كيفما كنتِ

أردُّ إليَّ لون الوجه والبدنِ
وضوء القلب والعينِ
وملح الخبز واللحنِ
وطعم الأرض والوطنِ !
خُذيني تحت عينيكِ
خذيني لوحة زيتيَّةً في كوخ حسراتِ
خذيني آيةً من سفر مأساتي
خذيني لعبة... حجراً من البيت
ليذكر جيلُنا الآتي
مساربه إلى البيتِ !

فلسطينيةَ العينين والوشمِ
فلسطينية الإسمِ
فلسطينية الأحلام والهمِّ
فلسطينية المنديل والقدمَين والجسمِ
فلسطينية الكلمات والصمتِ
فلسطينية الصوتِ
فلسطينية الميلاد والموتِ
حملتُكِ في دفاتريَ القديمةِ

نارَ أشعاري
حملتُك زادَ أسفاري
وباسمك، صحتُ في الوديانْ :
خيولُ الروم !. . أعرفها
وإن يتبدَّل الميدان !
خُذُوا حَذَراً. .
من البرق الذي صكَّته أُغنيتي على الصوَّانْ
أنا زينُ الشباب، وفارس الفرسانْ
أنا. ومحطِّم الأوثانْ.
حدود الشام أزرعها
قصائد تطلق العقبان !
وباسمك، صحت بالأعداءْ :
كلي لحمي إذا ما نمت يا ديدانْ
فبيض النمل لا يلد النسورَ. .
وبيضةُ الأفعى. . .
يخبىء قشرُها ثعبانْ !
خيول الروم. . أعرفها
وأعرف قبلها أني
أنا زينُ الشباب، وفارس الفرسان !

قال المغني

هكذا يكبرُ الشجرْ

ويذوب الحصى . . .

رويداً رويداً

من خرير النهر !

المغني ، على طريق المدينهْ
ساهرُ اللحن . . كالسهرْ
قال للريح في ضجرْ :
ـ دمِّريني ما دمتِ أنتِ حياتي
مثلما يدَّعي القدر ـ
. . . واشربيني نَخب انتصار الرفاتِ
هكذا ينزل المطر
يا شفاه المدينة الملعونهْ !

أبعَدُوا عنه سامعيهْ

والسكارى . .

وقيَّدوه
ورموهُ في غرفة التوقيفِ
شتموا أُمه، وأُمَّ أبيه
والمغني..
يتغنى بشَعر شمس الخريفِ
يضمدُ الجرح.. بالوترْ!

المغني على صليب الألمْ
جرحُه ساطعٌ كنجمْ
قال للناس حوله
كلَّ شيء.. سوى الندم:
هكذا متُّ واقفاً
واقفاً متُّ كالشجر!
هكذا يصبح الصليبْ
منبراً.. أو عصا نَغمْ
ومساميره.. وتر!

هكذا ينزل المطرْ
هكذا يكبر الشجر..

صوت وسوط

لو كان لي برجٌ،
حبست البرق في جيبي
وأطفأتُ السحابْ. .
لو كان لي في البحر أشرعةٌ،
أخذتُ الموج والإعصار في كفّي
ونوَّمت العبابْ. .
لو كان عندي سلَّمٌ،
لغرستُ فوقَ الشمسِ رايتيَ التي
اهترأتْ على الأرض الخراب. .
لو كان لي فرسٌ،
تركت عنانها
ولجمتُ حُوذيَّ الرياح على الهضابْ. .

لو كان لي حقل ومحراثٌ،
زرعت القلب والأشعارَ
في بطن التراب..
لو كان لي عودٌ،
ملأتُ الصمتَ أسئلةً ملحَّنةً،
وسلَّيتُ الصحاب..
لو كان لي قَدَمٌ،
مشيتُ.. مشيتُ حتى الموت
منْ غاب لغاب..
لو كان لي..
حتى صليبي ليسَ لي،
إنِّي له،
حتى العذاب!

ـ ماذا تبقَّى أيها المحكوم؟
إنَّ الليل خيَّم مرَّة أُخرى..
وتهتفُ: لا أهاب؟!
ـ يا سيداتي.. سادتي!
يا شامخين على الحرابْ!

الساق تقطع . . والرقاب
والقلبُ يُطفأُ ـ لو أردتم ـ
والسحابْ . .
يمشي على أقدامكم . .
والعينُ تُسمل، والهضابْ
تنهار لو صحتم بها
ودمي المملَّح بالترابْ !
إن جفَّ كرمكمُ،
يصير إلى شرابْ !
والنيل يسكب في الفرات،
إذا أردتم، والغرابْ . .
لو شئتم . . في الليل شاب !
لكنَّ صوتي صاح يوماً :
لا أهابْ
فلتجلدوه إذا استطعتم . .
واركضوا خلف الصدى
ما دام يهتف : لا أهابْ !

أغاني الأسير

ملوِّحةً، يا مناديل حبّي
عليكِ السلامْ !
تقولين أكثر مما يقول
هديل الحمام
وأكثر من دمعةٍ
خلف جفن.. ينام
على حُلُمٍ هاربٍ !

مفتَّحة، يا شبابيك حبّي
تمرُّ المدينه
أمامكِ، عرسَ طغاة
ومرثاة أمّ حزينه
وخلف الستائر، أقمارنا
بقايا عفونه.

وزنزانتي . . موصده !

ملوَّثة، يا كؤوس الطفولهْ
بطعم الكهولهْ
شربنا، شربنا
على غفلة من شفاه الظماٍ
وقلنا :
نخاف على شفتينا
نخاف الندى . . والصدأ !
وجلستنا، كالزمان، بخيله
وبيني وبينكِ نهر الدمِ

معلَّقة، يا عيون الحبيبه
على حبل نورٍ
تكسَّر من مقلتينْ
ألا تعلمين بأني
أسير اثنتين ؟
جناحاي : أنت وحريَّتي
تنامان خلف الضفاف الغريبه
أحبُّكما، هكذا، توأمين !

ولادة

ـ كانت أشجار التينْ
وأبوكَ . .
وكوخ الطين
وعيون الفلاحين
تبكي في تشرين !
ـ المولود صبي
ثالثهم . .
والثدي شحيحْ
والريحْ
ذرّت أوراق التين !

حزنتْ قارئةُ الرملِ
ورَوَتْ لي ،

همساً،
هذا الغصنُ حزين !

ـ يا أُمي
جاوزت العشرين
فدعي الهمَّ، ونامي !
إن قصفتْ عاصفة
في تشرين..
ثالثهم..
فجذور التين
راسخة في الصخر.. وفي الطين
تعطيك غصوناً أُخرى..
وغصون !

إلى أمي

أحنُّ إلى خبز أُمي
وقهوة أُمي
ولمسة أُمي . .
وتكبرُ فيَّ الطفولةُ
يوماً على صدر يومِ
وأعشَقُ عمرِي لأني
إذا مُتُّ،
أخجل من دمع أُمي !

خذيني ، إذا عدتُ يوماً
وشاحاً لهُدْبِكْ
وغطّي عظامي بعشب

تعمَّد من طهر كعبك
وشُدّي وثاقي . .
بخصلة شَعر . .
بخيطٍ يلوِّح في ذيل ثوبك . .
عساني أصيرُ إلهاً
إلهاً أصير . .
إذا ما لمستُ قرارة قلبك !

ضعيني ، إذا ما رجعتُ
وقوداً بتنور نارِكْ . .
وحبل غسيل على سطح دارك
لأني فقدتُ الوقوفَ
بدون صلاة نهارك
هَرِمْتُ ، فردّي نجوم الطفولة
حتى أُشارك
صغار العصافيرِ
درب الرجوع . .
لعُشِّ انتظارِك !

أهديها غزالا

وشاحُ المغرب الورديِّ فوق ضفائر الحلوهْ
وحبةَ برتقال كانت الشمسُ.
تحاول كفها البيضاءُ أن تصطادها عُنوهْ
وتصرخ بي ، وكل صراخها همسُ :
أخي ! يا سُلَّمي العالي !
أريدُ الشمس بالقوهْ !

.. وفي ليلٍ رماديٍّ، رأينا الكوكب الفضي
ينقط ضوءه العسلي فوق نوافذ البيتِ.
وقالت، وهي حين تقول، تدفعني إلى الصمت :
تعال غداً لنزرعه.. مكان الشوك في الأرضِ !

أبي من أجلها صلّى وصامَ..
وجاب أرض الهند والإغريقْ

إلهاً راكعاً لغبار رجليها
وجاع لأجلها في البيد.. أجيالاً يشدُّ النوق:
وأقسمَ تحت عينيها
يمين قناعة الخالق بالمخلوق !

تنام، فتحلم اليقظة في عيني مع السَّهَرِ
فدائيٌّ الربيع أنا، وعبدُ نعاس عينيها
وصوفي الحصى، والرمل، والحجرِ
سأعبدهم، لتلعب كالملاك، وظلٌّ رجليها
على الدنيا، صلاة الأرض للمطرِ

حريرٌ شوكُ أيّامي، على دربي إلى غدها
حريرٌ شوكُ أيّامي !
وأشهى من عصير المجد ما ألقى.. لأسعدها
وأنسى في طفولتها عذاب طفولتي الدامي
وأشرب، كالعصافير، الرضا والحُبَّ من يدها

سأُهْديها غزالاً ناعماً كجناح أُغنيةْ
له أنفٌ ككرملنا..

وأقدامٌ كأنفاس الرياح، كخطو حريَّه
وعنقٌ طالع كطلوع سنبلنا
من الوادي . . إلى القمم السماويَّه !

سلاماً يا وشاح الشمس، يا منديل جنتنا
ويا قَسَمَ المحبة في أغانينا !
سلاماً، يا ربيعاً راحلاً في الجفن ! يا عَسَلاً بغصَّتنا
ويا سهر التفاؤل في أمانينا
لخضرة أعين الأطفال . . ننسج ضوء رايتنا !

شهيد الأغنية

نَصَبُوا الصليبَ على الجدارْ
فكّوا السلاسل عن يدي .
والسوط مروحةٌ . ودقاتُ النعال
لحن يصفِّرُ : سيدي !
ويقول للموتى : حذار !
ـ يا أنت !
قال نباح وحشْ :
أعطيكَ دربكَ لو سجدتَ
أمام عرشي سجدتينْ !
ولثمتَ كفي ، في حياء، مرتينْ
أو . .
تعتلي خشب الصليبِ

شهيد أغنية . . وشمسْ !

ما كنتُ أول حامل إكليل شوكِ
لأقول للسمراء: إبكي !
يا من أُحبك، مثلَ إيماني ،
ولاسمك في فمي المغموسِ
بالعطش المعفَّر بالغبار
طعمُ النبيذ إذا تعتّق في الجرار!
ما كنتُ أول حامل إكليل شوكِ
لأقول : إبكي !
فعسى صليبي صهوةٌ،
والشوك فوق جبيني المنقوش
بالدم والندى
إكليلُ غار !
وعساي آخرُ من يقول :
أنا تشهَّيت الردى !

تموز والأفعى

تموزُ مرَّ على خرائبنا
وأيقظ شهوة الأفعى .
القمح يحصد مرة أُخرى
ويعطش للندى . . المرعى

تموز عاد، ليرجم الذكرى
عطشاً . . وأحجاراً من النارِ
فتساءل المنفيُّ :
كيف يطيع زرعُ يدي
كفاً تسمم ماء آباري ؟.

وتساءل الأطفال في المنفى :

آباؤنا ملأوا ليالينا هنا.. وصفا
عن مجدنا الذهبي
قالوا كثيراً عن كروم التين والعنبِ
تموز عاد، وما رأيناها

وتنهّد المسجونُ : كنتَ لنا
يا محرقي تموز... معطاءً
رخيصاً مثل نور الشمس والرملِ
واليوم، تجلدنا بسوط الشوق والذلِ

تموز.. يرحل عن بيادرنا
تموز. يأخذ معطف اللهبِ
لكنهُ يبقى بخربتنا
أفعى
ويترك في حناجرنا
ظمأ
وفي دمنا..
خلود الشوق والغضبِ

برقية من السجن

من آخر السجن، طارت كفُّ أشعاري
تشد أيديَكُمْ ريحاً.. على نارِ
أنا هنا، ووراء السورِ، أشجاري
تُطوِّعُ الجبلَ المغرورَ.. أشجاري
مذ جئتُ أدفع مهر الحرف، ما ارتفعتْ
غيرُ النجوم على أسلاك أسواري
أقول للمُحْكِم الأصفادَ حول يدي :
هذي أساور أشعاري وإصراري
في حجم مجدكمُ نعلي، وقيدُ يدي
في طول عمركمُ المجدولِ بالعارِ :
أقول للناس، للأحباب : نحن هنا
أسرى محبتكُمْ في الموكب الساري
في اليوم، أكبر عاماً في هوى وطني
فعانقوني عناق الريح للنارِ

السجن

تغيَّر عنوانُ بيتي
وموعدُ أكلي
ومقدار تبغي تغيَّر
ولون ثيابي، ووجهي، وشكلي
وحتى القمر
عزيزٌ عليَّ هنا..
صار أحلى وأكبر
ورائحة الأرض : عطرٌ
وطعم الطبيعة : سُكّرْ
كأني على سطح بيتي القديم
ونجم جديد..
بعيني تسمَّرْ

وشم العبيد

روما على جلودنا
أرقام أسرى. والسياطْ
تفكها إذا هوت، أو ترتخي . .
كان العبيد عزَّلاً
ففتتوا البلاط !

بابل حول جيدنا
وشمُ سبايا عائدهْ
تغيرت ملابس الطاغوتْ
من عاش بعد الموت
لو آمنت . . لا يموت

متنا وعشنا، والطريق واحده !

إفريقيا في رقصنا
طبل . . ونار حافيهْ
وشهوةٌ على دخان غانيه .
في ذات يوم . . أحسن العزف على
ناي الجذوع الهاويه .
أنوِّمُ الأفعى
وأرمي نابها في ناحيه
فتلتقي في رقصة جديدة . . جديدة
إفريقيا . . . وآسيه !

صوت من الغابة

من غابة الزيتون
جاء الصدى . .
وكنتُ مصلوباً على النارِ !
أقول للغربان : لا تنهشي
فربما أرجعُ للدارِ
وربما تشتي السما
ربما . .
تطفىء هذا الخشب الضاري !

أنزل يوماً عن صليبي
ترى . .
كيف أعود حافياً . . عاري !؟

في انتظار العائدين

أكواخُ أحبابي على صدر الرمالِ
وأنا مع الأمطار ساهرْ. .
وأنا ابن عوليس الذي انتظر البريد من الشمالِ
ناداه بحّار، ولكن لم يسافرْ.
لجمَ المراكب، وانتحى أعلى الجبالِ
ـ يا صخرة صلّى عليها والدي لتصون ثائر
أنا لن أبيعك باللآلي.
أنا لن أسافر. .
لن أُسافر. .
لن أُسافر!

أصوات أحبابي تشق الريح، تقتحم الحصونْ
ـ يا أُمنا انتظري أمام الباب. إنّا عائدون

هذا زمانٌ لا كما يتخيلون . .

بمشيئة الملاّح تجري الريح . .

والتيار يغلبه السفين !

ماذا طبخت لنا ؟ فإنّا عائدون .

نهبوا خوابي الزيت، يا أُمي ، وأكياس الطحين

هاتي بقول الحقل ! هاتي العشب !

إنّا عائدون !

خطوات أحبابي أنين الصخر تحت يد الحديدِ

وأنا مع الأمطار ساهدْ

عبثاً أُحدِّقُ في البعيدِ

سأظل فوق الصخر . . تحت الصخر . . صامد

مطر

- ١ -

ناري ،
وخمس زنابق شمعية في المزهريهْ
وعزاؤنا الموروث :
في الغيمات ماءْ
والأرض تعطش. والسماء
تروي . وخمس زنابق شمعية في المزهريهْ.

- ٢ -

عفويةٌ صلواتُ جدتنا، وكانْ
جدي يحب الكستنا
وطعام أمي

قد كنت كالحمل الوديع
وكان همي
أن يفاجئنا الربيع !
يا جدي المرحوم ! أهلاً بالمطر
يروي ثراك. فلا يزال السنديان
من يومها يدمي الحجر !

- ٣ -

لنقل مع الأجداد : خيرْ !
هذا مخاض الأرض : خير !
تضع الوليد غداً.. ربيعاً أخضرا !
كعيون سائحة أطلَّتْ ذات فجر !
لا الأم أُمي..
لا الوليد أخي، ولا
ذات العيون الخضر لي
وأقول : خير !

- ٤ -

يا نوح !
هبني غصن زيتونٍ

ووالدتي . . حمامه !
إنَّا صنعنا جنة
كانت نهايتها صناديق القمامه !
يا نوح !
لا ترحل بنا
إن الممات هنا سلامه
إنّا جذور لا تعيش بغير أرض . .
ولتكن أرضي قيامه !

قمر الشتاء

سألمُّ جثتك الشهيدهْ
وأُذيبها بالملح والكبريت. .
ثم أعبُّها. .
كالشاي
كالخمرة الرديئة. .
كالقصيده
في سوق شعر خائب
وأقول للشعراء :
يا شعراء أُمتنا المجيده !
أنا قاتل القمر الذي
كنتم عبيده !!
سيقال : كالمتسول المنفي. . كانْ
ردّوه عن كل النوافذ

وهو يبحث عن حنان.
لا عاشقان
يَتَذَكّران . . .

ـ قلبي على قمر
تحجّر في مكان
ويقال.. كان!
وأنا على الإسفلت
تحت الريح والأمطار
مطعون الجنان
لا تفتح الأبواب في وجهي
ولا تمتدّ نحو يدي يدان

عيني على قمر الشتاء..
وقد ترمّد في دمي..
قلبي على قرص الدخان!
لا تظلموني أيها الجبناء
لم أقتل سوى نذل جبان
بالأمس عاهدني
وحين أتيته في الصبح.. خان..

خواطر في شارع

يا شارع الأضواء ! ما لون السماء؟
وعلام يرقص هؤلاء ؟
من أين أعبر، والصدور على الصدور
والساق فوق الساق. ما جدوى بكائي
أي عاصفة يفتتها البكاء ؟
فتيممي يا مقلتي حتى يصير الماء ماء
وتحجَّرِي يا خطوتي !
هذا المساء . .
قدَرٌ أسلّمه سعير الكبرياء !
من أي عام . .
أمشي بلا لون، فلا أصحو ولا أغفو
وأبحث عن كلام ؟

أتسلق الأشجار أحياناً
وأحياناً أجدِّف في الرغام
والشمس تشرق ثم تغرب.. والظلام
يعلو ويهبط. والحمام
ما زال يرمز للسلام!
يا شارع الأضواء، ما لون الظلام
وعلام يرقص هؤلاء؟
ومتى تكفُّ صديقتي بالأمس، قاتلتي
تكفُّ عن الخيانة والغناء؟
الجاز يدعوها؟
ولكني أُناديها.. أُناديها.. أُناديها.
وصوت الجاز مصنوع
وصوتي ذوب قلب تحت طاحون المساء
لو مرة في العمر أبكي،
يا هدوء الأنبياء
لكن زهر النار يأبى أن يعرِّض للشتاء
يا وجه جدي
يا نبياً ما ابتسم

من أي قبر جئتني،
ولبست قمبازاً بلون دم عتيق
فوق صخره
وعباءة في لون حفره
يا وجه جدي
يا نبياً ما ابتسم
من أي قبر جئتني
لتحيلني تمثال سم.
الدين أكبرُ
لم أبع شبراً، ولم أخضع لضيم
لكنهم رقصوا وغنوا فوق قبرك..
فلتنم
صاحٍ أنا.. صاحٍ أنا.. صاحٍ أنا
حتى العدم

تحد

شُدّوا وثاقي
وامنعوا عني الدفاتر
والسجائرْ
وضعوا الترابَ على فمي
فالشعر دمٌ القلب..
ملح الخبز..
ماءُ العينِ
يكتب بالأظافر
والمحاجر
والخناجر
سأقولها
في غرفة التوقيف.

في الحمام . .

في الإسطبل . .

تحت السوط . .

تحت القيد . .

في عنف السلاسل :

مليون عصفور

على أغصان قلبي

يخلق اللحن المقاتل

نـاي

لا تقتلوني أيها الرعاه
لا تعزفوا
خافوا عليَّ اللّه
أستحلف الفحيح أن ينام
في ألحانكم . .
حتى أمرَّ في سلام
زنجار ! يا قاتلتي زنجار
لا تنتظري
إني سمعتُ الناي
لا تنتظري
إني هجرتُ الدار !

المناديل

كمقابر الشهداء صمتُكِ
والطريق إلى امتدادِ
ويداكِ... أذكرُ طائرين
يُحوِّمان على فؤادي
فَدَعي مخاض البرق
للأفق المعبَّأ بالسوادِ
وتوقَّعي قُبَلاً مُدمّاةً
ويوماً دون زادِ
وتعوَّدي ما دمت لي
موتي... وأحزان البعادِ!
كفَنٌ مناديل الوداع
وخفقُ ريح في الرمادِ

مـا لـوَّحَـتْ، إلاّ ودم سـال
فـي أغـوار وادِ
وبكى، لصـوتٍ مـا، حنيـن
فـي شـراع الـسـنـدبـادِ
رُدّي، سألتُكِ، شهقة المنديـل
مـزمـاراً يـنـادي..
فـرحـي بـأن ألـقـاكِ وعـداً
كـان يـكـبـر فـي بـعـادي
مـا لي سوى عينيك، لا تبكي
عـلى مـوتٍ مـعـادِ
لا تـستـعـيـري من مـناديلي
أنـاشـيـد الـودادِ
أرجـوكِ! لـفّـيـهـا ضـمـاداً
حـول جـرحٍ فـي بـلادي

خائف من القمر

خبِّئيني. أتى القمر
ليت مرآتنا حجر!
ألفُ سرّ سرّي
وصدركِ عارٍ
وعيون على الشجر
لا تغطّي كواكباً
ترشح الملح والخدر
خبِّئيني.. من القمر!
وجهُ أمسي مسافرٌ
ويدانا على سَفَر
منزلي كان خندقاً

لا أراجيح للقمر..
خبِّئيني.. بوحدتي
وخذي المجد.. والسهر
ودعي لي مخدَّتي
أنتِ عندي
أم القمر ؟!

أبيات غزل

سألتكِ : هزّي بأجمل كفّ على الأرض
غصنَ الزمان !
لتسقط أوراق ماض وحاضرْ
ويولد في لمحة توأمان :
ملاك . . وشاعر !
ونعرف كيف يعود الرماد لهيباً
إذا اعترف العاشقان !
أتُفاحتي ! يا أحبَّ حرام يباحْ
إذا فهمتْ مقلتاك شرودي وصمتي
أنا، عجباً، كيف تشكو الرياح
بقائي لديك ؟ وأنتِ

خلودُ النبيذ بصوتي
وطعم الأساطير والأرض. . أنتِ !
لماذا يسافر نجم على برتقاله
ويشرب يشرب يشرب حتى الثمالهْ
إذا كنتِ بين يديّ
تفتَّتَ لحن، وصوت ابتهالهْ
لماذ أُحبكِ ؟
كيف تخر بروقي لديك ؟
وتتعب ريحي على شفتيك
فأعرف في لحظةٍ
بأن الليالي مخدَّه
وأن القمر
جميل كطلعة ورده
وأني وسيم. . لأني لديك !
أتبقين فوق ذراعي حمامه
تغمِّس منقارها في فمي ؟
وكفُّك فوق جبينيَ شامه
تخلّد وعد الهوى في دمي ؟

أتبقين فوق ذراعي حمامه
تجنِّحني . . كي أطير
تهدهدني . . كي أنام
وتجعل لاسمِيَ نبض العبير
وتجعل بيتيَ برج حمام ؟
أُريدك عندي
خيالاً يسير على قدمين !
وصخر حقيقه
يطير بغمزة عين !

لوحة على الأفق

رأيت جبينكِ الصيفيَّ
مرفوعاً على الشفقِ
(وشعركِ ماعز) يرعى
حشيش الغيم في الأفقِ
تودُّ العين . . لو طارت إليك
كما يطير النوم من سجني
يود القلب لو يحبو إليك
على حصى الحزنِ
يود الثغر لو يمتصّ
عن شفتيكِ . .
ملح البحر، والزمنِ

يود.. يود، لكني
وراء حديد شباكي
أودِّع وجهك الباكي
غريقاً فوق دمّ الشمس..
مهدوراً على الأفقِ
فأحمل فوق جرح القلب جرحين
ولكني.. أحاول أن أضمدها.. أوسِّدها
ذراع تمرُّد الحزنِ!

دعوة للتذكار

مرّي بذاكرتي !
فأسواق المدينهْ
مرّتْ
وباب المطعم الشتوي
مرّ.
وقهوة الأمس السخينهْ
مرّتْ.
وذاكرتي تنقرها. .
العصافير المهاجرة الحزينهْ
لم تنس شيئاً غير وجهك
كيف ضاع ؟
وأنت مفتاحي إلى قلب المدينهْ ؟

قصائد عن حب قديم

- ١ -

على الأنقاض وردتُنا
ووجهانا على الرملِ
إذا مرَّتْ رياحُ الصيفِ
أشرعنا المناديلا
على مهل.. على مهلِ
وغبنا طيَّ أُغنيتين، كالأسرى
نراوغ قطرة الطلِّ
تعالي مرة في البال
يا أُختاه!
إن أواخر الليلِ

تعرّيني من الألوان والظلِّ
وتحميني من الذل !
وفي عينيك، يا قمري القديم،
يشدُّني أصلي
إلى إغفاءة زرقاء
تحت الشمس.. والنخلِ
بعيداً عن دجى المنفى..
قريباً من حمى أهلي

- ٢ -

تشهَّيتُ الطفولة فيكِ.
مذ طارت عصافيرُ الربيعِ
تجرَّدَ الشجرُ
وصوتك كان، يا ما كان،
يأتيني
من الآبار أحياناً
وأحياناً ينقِّطه لي المطرُ
نقياً هكذا كالنارِ
كالأشجار.. كالأشعار ينهمرُ
تعالي

كان في عينيكِ شيء أشتهيهِ
وكنتُ أنتظرُ
وشدّيني إلى زنديكِ
شديني أسيراً
منكِ يغتفرُ
تشهّيت الطفولة فيك.
مذ طارت
عصافير الربيع..
تجرَّد الشجرُ!

- ٣ -

.. ونعبر في الطريق
مكبَّلين..
كأننا أسرى
يدي، لم أدر، أم يدُكِ
احتست وجعاً
من الأخرى؟
ولم تطلق، كعادتها،
بصدري أو بصدرك..

سروة الذكرى
كأنّا عابرا دربٍ،
ككلٍّ الناس،
إن نظرا
فلا شوقاً
ولا ندماً
ولا شزرا
ونغطس في الزحام
لنشتري أشياءنا الصغرى
ولم نترك لليلتنا
رماداً. . يذكر الجمرا
وشيء في شراييني
يناديني
لأشرب من يديك
ترمّد الذكرى

- ٤ -

ترجَّلَ، مرةً، كوكب

وسار على أناملنا
ولم يتعبْ
وحين رشفتُ عن شفتيك
ماء التوت
أقبل، عندها، يشربْ
وحين كتبتُ عن عينيك
نَقَّطَ كل ما أكتب
وشاركنا وسادتنا..
وقهوتنا
وحين ذهبتِ..
لم يذهب
لعلي صرت منسياً
لديكِ
كغيمة في الريح
نازلة إلى المغربْ..
ولكني إذا حاولتُ
أن أنساك..
حَطَّ على يدي كوكبْ

- ٥ -

لكِ المجدُ
تجنَّحَ في خيالي
من صداك . .
السجنُ، والقيدُ
أراك، إذا استندتُ
إلى وسادٍ
مهرةً . . تعدو
أحسكِ في ليالي البرد
شمساً
في دمي تشدو
أُسميك الطفولة
يشرئبّ أماميَ النهدُ
أُسميكِ الربيع
فتشمخ الأعشاب والوردُ
أُسميكِ السماء
فتشمت الأمطار والرعدُ
لك المجدُ

فليس لفرحتي بتحيُّري
حدُّ
وليس لموعدي. . وعدُ
لك المجدُ

- ٦ -

وأدركَنا المساءُ. .
وكانت الشمسُ
تسرِّح شعرها في البحرْ
وآخر قبلة ترسو
على عينيَّ مثل الجمرْ
- خذي مني الرياح
وقبِّليني
لآخر مرة في العمر
. . وأدركها الصباحُ
وكانت الشمسُ
تمشط شعرها في الشرقْ
لها الحنّاء والعرسُ
وتذكرة لقصر الرق

- خذي مني الأغاني

واذكريني . .

كلمحْ البرقْ

وأدركني المساء

وكانت الأجراسْ

تدق لموكب المسبية الحسناءْ

وقلبي بارد كالماسْ

وأحلامي صناديقٌ على الميناء

- خذي مني الربيع

وودِّعيني . .

أبـي

غَضَّ طرفاً عن القمرْ
وانحنى يحضن التراب
وصلّى . .
لسماء بلا مطر،
ونهاني عن السفر !

أشعل البرقُ أوديهْ
كان فيها أبي
يربي الحجارا
من قديم . . ويخلق الأشجارا
جلدُهُ ينذفُ الندى
يدهُ تورقُ الشجرْ
فبكى الأفق أغنيهْ :

ـ كان أوديس فارساً . .
كان في البيت أرغفهْ
ونبيذ، وأغطيه
وخيول، وأحذيهْ
وأبي قال مرة
حين صلّى على حجرْ :
غُضَّ طرفاً عن القمر
واحذر البحر . . والسفر !

يوم كان الإله يجلد عبدَهْ
قلت : يا ناس ! نكفرُ ؟
فروى لي أبي . . وطأطأ زنده :
في حوار مع العذاب
كان أيوب يشكرُ
خالق الدود . . والسحاب !
خُلق الجرحُ لي أنا
لا لميْت . . ولا صنمْ
فدع الجرح والألم

وأعِنّي على الندم !

مرَّ في الأفق كوكبُ
نازلاً . . نازلاً
وكان قميصي
بين نار، وبين ريحْ
وعيوني تفكِّرُ
برسوم على التراب
وأبي قال مرة :
الذي ما له وطن
ما له في الثرى ضريح
. . ونهاني عن السفر !

نشيد

- ١ -

لأجمل ضفة أمشي
فلا تحزن على قدمي
من الأشواك
إن خطايَ مثل الشمس
لا تقوى بدون دمي !
لأجمل ضفة أمشي
فلا تحزن على قلبي
من القرصان..
إن فؤاديَ المعجون كالأرضِ
نسيم في يد الحبِّ

وبارود على البغضِ !
لأجمل ضفة أمشي
فإمّا يهترىء نعلي
أضع رمشي
نعم.. رمشي !
ولا أقفُ
ولا أهفو إلى نوم وأرتجف
لأن سرير من ناموا
بمنتصف الطريق..
كخشبة النعشِ !
تعالوا يا رفاق القيد والأحزان
كي نمشي
لأجمل ضفة نمشي
فلن نقهرْ
ولن نخسر
سوى النعشِ !

- ٢ -

إلى الأعلى

حناجرُنا
إلى الأعلى
محاجرنا
إلى الأعلى
أمانينا
إلى الأعلى
أغانينا
سنصنع من مشانقنا
ومن صلبان حاضرنا وماضينا
سلالم للغد الموعود
ثم نصيح : يا رضوان !
إفتحْ بابك الموصود !
سنطلقُ من حناجرنا
ومن شكوى مراثينا
قصائد، كالنبيذ الحلو
تكرع في ملاهينا
وتنشد في الشوارع
في المصانع

في المحاجر
في المزارع
في نوادينا !
سننصب من محاجرنا
مراصد، تكشف الأبعد والأعمق والأروعْ
فلا نقشعْ
سوى الفجرِ
ولا نسمع
سوى النصرِ
فكل تمرد في الأرضْ
يزلزلنا
وكل جميلة في الأرض
تقبِّلُنا
وكل حديقة في الأرض
نأكل حبة منها
وكل قصيدة في الأرض
إذا رقصت نخاصرها
وكل يتيمة في الأرض

إذا نادت نناصرها
سنخرج من معسكرنا
ومنفانا
سنخرج من مخابينا
ويشتمنا أعادينا :
«هلا . . همج همُ . . عرب»
نعم ! عربُ
ولا نخجلْ
ونعرف كيف نمسك قبضة المنجل
وكيف يقاوم الأعزل
ونعرف كيف نبني المصنع العصريَّ
والمنزل . .
ومستشفى
ومدرسة
وقنبلة
وصاروخاً
وموسيقى
ونكتب أجمل الأشعار . .

صوت :

وماذا بعد ؟
سمعنا صوتك المدهون بالفسفور
سمعناه . . سمعناهُ
فكيف ستجعل الكلماتُ
أكواخ الدجى . . بلَّور !
ودربك كله ديجور
وشعبك . .
دمعة تبكي زمان النور
وأرضك . .
نقش سجاده
على الطرقات مرميَّه
وأنت . . بدون زوّاده
وماذا بعد ؟ ماذا بعد ؟
جميلٌ صوتك المحمول بالريح الشماليَّه
ولكنا سئمناهُ !

صوت :

ذليلٌ أنت كالإسفلتْ

ذليل أنت

يا من يحتمي بستارة الضجرِ

غبيٌّ أنت.. كالقمرِ

ومصلوب على حجرِ

فدعني أكمل الإنشاد

دعني أحمل الريح الشماليَّه

ودعني أحبس الأعصار في كمي

ودعني أخزن الديناميت في دمي

ذليل أنت كالإسفلتْ

وكالقمرِ..

غبيٌّ أنت !

نشيد بنات طروادة

وداعاً يا ليالي الطهر

يا أسوار طرواده

خرجنا من مخابينا

إلى أعراس غازينا

لنرقص فوق موت رجال طرواده

سبايا نحن، نعطيهم بكارتنا
وما شاؤُوا
لأنهمُ أشداءُ
ونرقد في مضاجع قاتلي أبطال طرواده

وداعاً يا ليالي الطهر والأحلام
يا ذكرى أحبتنا
سبايا نحن منذ اليوم
من آثار طرواده !

تعليق على النشيد

بلى. أصغيتُ للنغمِ
فلا تُخضع لجناز الردى
قيثارك المشدود..
من قاع المحيط لجبهة القممِ !
لئلا تجهض الأزهار والكبريت
فوق فمِ
سيزهر مرة طلعاً وقنديلاً
وشعراً يصهر الفولاذ..

يرصف شارع النغمِ
لئلّا تحقن الأجساد
أفيوناً من الألمِ
نعم. أصغيتُ للنغمِ
ولكني، تحرّيت السنا في الدمع
لا ديمومة الظلمِ
لنحرق ريشة الماضي
ونعزف لحننا الرائد!
فمن عزمي
ومن عزمك
ومن لحمي
ومن لحمك
نعبِّد شارع المستقبل الصاعد

صوت:

وماذا بعد؟ ماذا بعدْ!
وشعبك..
دمعة ترثي زمان المجد

ولحن القيد
يجنِّزنا
ويحفر للذين يقاومون اللحد !

مع المسيح

ـ ألو . .
ـ أُريد يسوع
ـ نعم ! من أنت !
ـ أنا أحكي من «إسرائيل»
وفي قدمي مسامير . . وإكليل
من الأشواك أحمله
فأي سبيل
أختار يا بن اللّه . . أي سبيل ؟
أأكفر بالخلاص الحلو
أم أمشي ؟
ولو أمشي وأحتضرُ ؟
ـ أقول لكم : أماماً أيها البشرُ !

مع محمد

ـ ألو. .
ـ أُريد محمد العربِ
ـ نعم ! من أنت ؟
ـ سجين في بلادي
بلا أرض
بلا علم
بلا بيتِ
رموا أهلي إلى المنفى
وجاؤوا يشترون النار من صوتي
لأخرج من ظلام السجن. .
ما أفعلْ ؟
ـ تحدَّ السجن والسجّان
فإن حلاوة الإيمان
تذيب مرارة الحنظلْ !

مع حبقوق

ـ ألو. . هالو !
أموجود هنا حبقوق ؟

ـ نعم من أنت ؟
ـ أنا يا سيدي عربي
وكانت لي يدٌ تزرع
تراباً سمَّدته يدا وعين أبي
وكانت لي خطى وعباءة . .
وعمامة ودفوف
وكانت لي . .
ـ كفى يا ابني !
على قلبي حكايتكم
على قلبي سكاكينُ

بقية النشيد

دعوني أُكمل الإنشاد
فإن هدية الأجداد للأحفاد :
«زرعنا . . فاحصدوا !»
والصوت يأتينا سماداً
يغرق الصحراء بالمطرِ
ويُخصب عاقر الشجرِ !
دعوني أُكمل الإنشاد

صلاة أخيرة

يُخَيَّلُ لي أن عمري قصير
وأني على الأرض سائح
وأن صديقة قلبي الكسير
تخون إذا غبتُ عنها
وتشرب خمرا
وتكتب شعرا
لغيري،
لأني على الأرض سائح!

يخيل لي أن خنجر غدرٍ
سيحفر ظهري
فتكتب إحدى الجرائد :

«كان يجاهد»
ويحزن أهلي وجيراننا
ويفرح أعداؤنا
وبعد شهور قليله
يقولون : كان !

يخيل لي أن شِعري الحزينْ
وهذي المراثي ، ستصبح ذكرى
وأن أغاني الفرح
وقوس قزح
سينشدها آخرون
وأن فمي سوف يبقى مدمًى
على الرملِ والعوسجِ
فشكراً لمن يحملون
توابيت أمواتهم !
وعفواً من المبصرين
أماميَ لافتة النجم
في ليله المدلجِ !

يخيل لي يا صليب بلادي
ستحرق يوماً
وتصبح ذكرى ووشماً
وحين سينزل عنك رمادي
ستضحك عينُ القدر
وتغمز : ماتا معاً
لو أني ، لو أني
أقبِّل حتى الحجر
وأهتف : لم تبق إلاّ بلادي !
بلاديَ ! يا طفلة أمَةً
تموت القيود على قدميها
لتأتي قيود جديده
متى نشرب الكأس نخبك
حتى ولو في قصيده ؟
ففرعون مات
ونيرون مات
وكل السنابل في أرض بابلَ
عادت إليها الحياة !

متى نشرب الكأس نخبك
حتى ولو في الأغاني
أيا مهرة يمتطيها طغاة الزمان
وتفلت منا
من الزمن الأولِ
ـ لجامك هذا. . دمي !
ـ وسرجك هذا. . دمي
إلى أين أنت إذن رائحه
أنا قد وصلت إلى حُفْرةٍ
وأنت أماماً. . أماماً
إلى أين ؟
يا مهرتي الجامحه ؟!

يخيل لي أن بحر الرماد
سينبتُ بعدي
نبيذاً وقمحاً
وأني لن أطعمه
لأني بظلمة لحدي

وحيدٌ مع الجمجمه
وفي شفتي بسمة منعمه
لأني صنعتُ مع الآخرين
خميرةَ أيامنا القادمه
وأخشابَ مركبنا في بحار الرماد

يخيل لي أن عمري قصير
وأني على الأرض سائح
ولو بقيت في دمي
نبضة واحدهْ
تعيد الحياة إليَّ
لو أني
أُفارق شوك مسالكنا الصاعده
لقلت : ادفنونيَ حالاً
أنا توأم القمة المارده !!

عاشق من فلسطين
(١٩٦٦)

صمم الغلاف : الفنان نبيل قدوح